

اسم المقياس: النقد الأدبي القديم

اسم الأستاذ: محمد سيف الإسلام

بوفلاقة

المستوى: سنة : 01، ليسانس

التخصص: جذع مشترك ميدان اللغة والأدب

العربي

مفهوم الشعر عند النقاد المشاركة

والمغربية

الشعر :

أ-زئبقية المفهوم وتعدد الرؤى:

من المسلم به أن الخطاب الشعري، يختلف عن النثر اختلافاً كبيراً من شتى الجوانب، وذلك في آداب مختلف الأمم، والشعوب، ولقد كانت الأمة العربية بعلمائها، ومبدعيها، ونقادها واعية كل الوعي بالاختلافات البينة، والتباينات الواضحة بين الشعر، والنثر، ولا ريب في أن «المفاهيم لا تتكون من فراغ، وإنما هي نتيجة حرص دائم، ومثاقفة مستمرة، وعمل دؤوب، في ميدان من الميادين الفكرية، أو الاجتماعية، أو العلمية... وحسب عمق التدبر والممارسة، والجد والمثابرة، تتعمق المفاهيم وتتجذر، وتتخذ مسار التطور، والارتقاء... وحسب قلة الموارد، ونضوب الينابيع، والرضا بالأقل، والاكتفاء بما هو كائن، وعدم الطموح لما ينبغي أن يكون... تضيق المفاهيم، وتنحسر، وتجف عيدانها، وتنكسر»⁽¹⁾.

والحق أن الشعر يتميز من مجموع الفنون الراقية، والجميلة بضرورة انطلاقه من مضامين فكرية ظاهرة في صريح العبارة، وإنه «ليتهياً للمنشئ أن يؤلف من مواد اللغة كلاماً هادفاً خالياً من كل نفحة شعرية، ولكن لا يتهياً له بحال أن يؤلف كلاماً شعرياً من دون مضمون فكري إلى حد ما معقول على عكس ما يتهياً للفنان في الموسيقى أو التمثيل. فقد يوضع الحن الموسيقي على (كلمات) منظومة، كما قد تبنى التمثيلية على قصة محكية، ولكن الأصل في الموسيقى أن تؤسس على الأصوات وحدها، وفي التمثيل أن يؤسس على الحركة التشخيصية. فالموسيقى تنطلق من أصوات مجردة قد يكتفى بها لإنتاج لوحات فنية طريفة، والتمثيل ينطلق من حركات تشخيصية مجردة قد يكتفى بها لإعداد مشاهد فنية رائعة، أما الشعر فلا انطلاق له إلا من مضمون فكري، ولكنه لا يسمو إلى درجة الفن المتميز إلا بما يتجاوز به المضمون الفكري من إمكانات الأداء»⁽²⁾.

ولعل من أبرز المفاهيم التي انشغل بها النقاد العرب، وانكب على تحليلها الفكر النقدي العربي طويلاً، ومازالت إلى أيامنا هذه تشكل هاجساً مؤرقاً بالنسبة إلى كثير من الدارسين، مفهوم (الشعر)، أو مفاهيمه المتعددة، والمتنوعة، والتي تخص الشعر كدلالة، ومنطوق فني، وأبرز الرؤى التي قدمت عنه انقسمت إلى شقين رئيسيين: أ- قسم يخص نقاداً تحصنوا بروى فلسفية، وانكبوا على دراسة الفلسفة، فأتى مفهومهم للشعر على درجة كبيرة من العمق، والوعي، والفهم الدقيق كما هو الشأن في بعض الرؤى، والأفكار التي قدمها السجلماسي.

ب- في حين أن أصحاب القسم الثاني يبدو أنهم ائترروا بمنزلة المحافظة الخجولة، وانغلقوا على أنفسهم، فاستهلكوا التراث، ولم يتجاوزوا ذلك⁽³⁾. وبناء على هذا الأساس فقد أثر في التراث النقدي، والأدبي العربي عدد من التعريفات، والمفاهيم، والرؤى الكثيرة التي كان هدفها الأساس وضع الفروقات، والاختلافات بين الشعر، والنثر بتمييز الأول عن الثاني، أو إيضاح وظيفة كل منهما مع بعض التحديدات لأجناس أدبية محددة، ولعل أبرز، وأشهر تعريف تم تداوله بكثرة، وكثيراً ما كُرر، وتداوله الدارسون أن الشعر هو (كلام موزون مقفى يدل على معنى، أو له معنى)، بيد أن الإجماع يقع كذلك على أن هذا التعريف يتسم بالقصور، وأنه ليس دقيقاً- رغم شهرته وتداوله-، وليس جامعاً مانعاً فثمة جملة من النقائص التي تشوبه، والملاحظات التي تؤخذ عليه، ولاسيما من حيث إنه لا يُراعي الأبعاد الحقيقية للشعر، ولاسيما الوظيفة الجمالية، حيث إن الوزن، والقافية، والدلالة على المعنى هي معايير ليست رئيسية، وأساسية، وكافية لرصد المميزات الدقيقة للشعر، وتمييزه عن غيره، ولعل السبب الرئيس يعود إلى النقائص التي تتبدى في سببها الأول في الاعتماد على الاتجاه المنطقي الذي ساد عند أصحابها، إذ نظروا إلى الشعر نظرة ساورها الجمود، واستبد بها، فهذه الرؤية اتسمت بأنها منطقية، وجامدة، وجافة، وابتعدت عن الأبعاد الجمالية⁽⁴⁾، والفنية⁽⁵⁾.

ب- أضواء على مفاهيم لغوية:

إن المصطلحات، والدلالات تختلف من ثقافة⁽⁶⁾ إلى أخرى، ومن حضارة⁽⁷⁾ إلى حضارة تتعدد الأفكار، وتتباين الرؤى، وتختلف، وقد تراءى لنا ونحن نبحت في

حفريات هذه الكلمة (الشعر)، أن هناك ميلاً للروز في دلالاتها من جوانب لغوية، ومعرفية، حيث إن هناك ثلة من الباحثين استعجلوا إيضاح مفاهيم، ودلالات كلمة (الشعر) من موقع المادة اللغوية (شعر)، والتي تنصرف إلى «شعر بالشيء: أحس بع، وعلمه، وأشعره بالأمر: أخبره به، وشعر الرجل: قال الشعر، فهو شاعر، والجمع شعراء، والشعر: ما ينبت فوق الجلد، وجمعه: أشعار، والشعائر: جمع شعيرة، وتطلق على مكان العبادة نفسها، وقد جعلها الله علامة على رضاه عن فاعلها، وشعائر الحج معالمه الظاهرة التي جعلها الله أعلاماً لطاعته، ومواضع نسكه، وعبادته كالمطاف، والمسعى، والمرمى، والمنحر، وقيل للبدنة المهداة للبيت شعيرة، لأنها تُشعر أي تعلم بأن تطعن في سنامها، أو تجل، أو تقلد، لأن ذلك من علامات إهدائها»⁽⁸⁾.

ومن المفيد أن نشير إلى أن الإمام الشيخ محمد الرازي قد نبه في مُعجمه (مختار الصحاح)، وهو بصد شرح الفعل (شعر) إلى أن الشعر للإنسان وغيره، وجمع الشعر شعور، وأشعار الواحدة شعرة، ورجل أشعر كثير شعر الجسد، وقوم شُعر، وواحدة الشعير شعيرة، وشعيرة السكين الحديدية التي تدخل في السيلان لتكون مساكاً للنصل، والشعيرة أيضاً البدنة تُهدى، والشعائر: أعمال الحج، وكل ما جُعل علماً لطاعة الله تعالى، قال الأصمعي: الواحدة شعيرة، قال: وقال بعضهم: شعارة، والمشاعر مواضع المناسك، والمشعر الحرام أحد المشاعر، وكسر الميم لغة، والمشاعر أيضاً الحواس⁽⁹⁾.

ويُضيف محمد الرازي الذي قدم شرحاً مطولاً في (مختار الصحاح) للفعل: (شعر)، فيقول: «والشعار بالكسر ما ولي الجسد من الثياب، وشعار القوم في الحرب علامتهم ليعرف بعضهم بعضاً، وأشعر الهدى إذا طعن في سنامه الأيمن حتى يسيل منه دم ليعلم أنه هديّ، وفي الحديث: (أشعر أمير المؤمنين)، وشعر بالشيء بالفتح يشعُر شعراً بالكسر: فطن له، ومنه قولهم: لبت شعري أي: لبتني علمت، قال سيبويه: أصله شعرة لكنهم حذفوا الهاء كما حذفوها من قولهم: ذهب بعذرها وهو أبو عذرها، والشعر واحد الأشعار، وجمع الشاعر شعراء على غير

قياس، وقال الأخفش: الشاعر مثل لابن وتامر، أي: صاحب شعر، وسُمي شاعراً لفظنته.

وما كان شاعراً فشعر من باب ظرف وهو يشعر، والمتشاعر الذي يتعاطى قول الشعر، وشاعره فشعره من باب قطع، أي غلبه بالشعر، واستشعر خوفاً أضمره، وأشعره فشعر، أي أدراه فدرى، وأشعره ألبسه الشعر، وأشعر الجنين، وتشعر: نبت شعره، وفي الحديث: (نكاة الجنين نكاة أمه إذا أشعر)، والشعراء بوزن الصحراء الشجر الكثير»⁽¹⁰⁾.

ونجد في (المعجم الوسيط) الصادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة، أن (شعر) فلان شعراً: قال الشعر. ويُقال: شعر له: قال له شعراً. وبه شعوراً: أحس به وعلم، وغلبه في الشعر، والشيء شعراً: بطنه بالشعر. يُقال شعر الخُف، وشعر الميثرة، شعر شعراً: كثر شعره، وطال، فهو أشعر، وهي شعراء، وشعر فلان: شعراً: اكتسب ملكة الشعر فأجاده، وشاعره: باراه في الشعر، وتشاعر: ادعى أنه شاعر، والشعر: كلام موزون مقفى قصداً، وفي اصطلاح المنطقيين: قول مؤلف من أمور تخيلية، يقصد به الترغيب، أو التنفير، كقولهم: الخمر ياقوتة سيالة، والعسل قيء النحل، والشعر المنثور: كلام بليغ مسجوع يجري على منهج الشعر في التخيل، والتأثير دون الوزن، ويقل: لبيت شعري ما صنع فلان: لبيتني أعلم ما صنع، والجمع أشعار⁽¹¹⁾.

ومن بين ما ورد في شرح (شعر) في كتاب: «أساس البلاغة» للزمخشري: «... وشعر فلان: قال الشعر، يقال: لو شعر بنقصه لما شعر، وتقول: بينهما معاشرة ومشاعرة، ورعينا شعري المراعي: ما نبت منها بنوء الشعري، ومن المجاز: سكين شعيرته ذهب، أو فضة، وأشعرتُ السكين. وأشعره الهم، وأشعره شراً: غشيه به، واستشعر خوفاً، وقال طفيل:

وراداً مُدماً وكُمتاً كأنما جرى فوقها، واستشعرت لون مُذهب
وليس شعار الهم. و داهية شعراء: ويراء، وجئت بشعراء: ذات وير. وروضة شعراء: كثيرة العشب...»⁽¹²⁾.

كما أن العلامة الراغب الأصفهاني شرح بإسهاب الفعل (شعر)، ومن بين ما ذكره: « الشعر معروف، وجمعه أشعار، وشعرت: أصبت الشعر، ومنه استعير: شعرت كذا، أي علمت علماً في الدقة كإصابة الشعر، وسمي الشاعر شاعراً لفطنته، ودقة معرفته، فالشعر في الأصل اسم للعلم الدقيق في قولهم: لبت شعري، وصار في التعارف اسماً للموزون المقفى من الكلام، والشاعر للمختص بصناعته...، والكلام ليس على أساليب الشعر، ولا يخفى ذلك على الأعتام من العجم، فضلاً عن بلغاء العرب، وإنما رموه بالكذب، فإن الشعر يعبر به عن الكذب، والشاعر: الكاذب حتى سمي قوم الأدلة الكاذبة الشعرية...، ولكون الشعر مقر الكذب، قيل: أحسن الشعر أكذبه. وقال بعض الحكماء: لم ير متدين صادق اللهجة مفلحاً في شعره. والمشاعر: الحواس...، والشعار أيضاً ما يشعر به الإنسان نفسه في الحرب، أي يعلم، وأشعره الحب، نحو: ألبسه»⁽¹³⁾.

إن القاسم المشترك الذي ألفيناه في جل المعاجم العربية التي سعت إلى إبراز الدلالة اللغوية للفعل (شعر)، هو التأكيد على أن « شعر يشعر، وشعر يشعر شعراً وشعوراً بالشيء: علم به، وشعر له: فطن له: عقله، وشعر له: قال شعراً (أو شعر أعم وشعر أجاده خاصة) فهو شاعر، ج: شعراء، وهي شاعرة، ج: شواعر، وأشعر الأمر، وأشعره به: أعلمه إياه، وأدراه به، وأشعرت لفلان: اطلعت عليه، وأشعرت به: اطلعت عليه»⁽¹⁴⁾.

فالشعر في اللغة ينصرف مباشرة إلى العلم بالشيء، والفطنة له، والإحساس به، ذلك أن شعر به كنصر، وكرم: علم به، وفطن له، وعقله، ومن هذا المعنى والدلالة قولهم: لبت شعري، أي ليتني أشعر، وقد تعددت في الاصطلاح تعريفات الشعر بتعدد المذاهب، والمدارس المختلفة سواء أكانت فنية، أو فكرية، ومنذ الأزمان السحيقة فمفهوم الشعر يختلف فيه من قبل الشعراء أنفسهم، فقد كان مفهوم الشعر يتباين من شاعر إلى آخر، ويتغير بتغير الأذواق، والاتجاهات، فلا ريب أن هناك رؤى، واعتبارات علمية، وغير علمية، أسهمت في كثرة مفاهيم الشعر، وتعددتها، فالشعر - على سبيل المثال - عند علماء العروض، والقافية، هو غيره عند علماء اللغة، والأدب، وهو عند النقاد، والمتأدبين غيره عند الفلاسفة

والمفكرين، ويبدو أن حده المشهور جداً بأنه (كلام موزون مقفى) وهو تعريف موسيقي ينهض على المنطق، والعقل، ربما كان هذا الحد يرجع في أصله إلى أفلاطون، وقد يكون تحديد الشعر بأنه الموقف الوجداني، والفكري، والاجتماعي، والنفسي الذي يتخذه الشاعر إزاء واقعه، والحياة عامة⁽¹⁵⁾.

ثانياً: خصائص وعناصر ومميزات الشعر:

أ- بين الإنصاف والإجحاف:

لقد حاول بعض العلماء، والنقاد في تحليلهم لمفهوم (الشعر) في التراث العربي الفصل بين مرحلة وصول مؤلف أرسطو إلى الثقافة العربية، ومرحلة المؤلفات العربية التي كُتبت قبل وصول المؤلف، ونستشهد في هذا الصدد بمنظور الباحث محمد لطفي اليوسفي الذي يقول: « إن الناظر في المؤلفات العربية التي كُتبت قبل وصول مؤلف أرسطو إلى الثقافة العربية يدرك، ببسر، أن أصحابها كانوا، رغم اختلاف قناعاتهم وتفاوت منجزاتهم، على وعي تام بأن الخطاب الشعري ينبني، جوهرياً، على جملة من الخاصيات بها يتمكن من كسر المساحة التي يتحرك في رحابها الخطاب العادي، وبالاستناد إليها يرتقي أيضاً إلى ذرى تعبيرية جمالية قوامها خرق العادة، والانعتاق في النمطية التي تدير الخطاب العادي. غير أن هذا الوعي لا يمكن أن يعتبر، في حد ذاته إضافة هامة يقف عندها الدارس تحليلاً، واستقراء. ذلك أن مجرد الانتباه إلى فرادة الحدث الشعري أمر لا يتطلب، في الواقع، مقدرة راقية على تمثيل الشعر، ولا ينبني على إصغاء للشعر، وهديره المحجب في النص الشعري ذاته، قصد ملامسة الفضاءات التي يرتادها الخطاب. فيظل مندرجاً في دائرة الكلام، ولكنه ينتشل نفسه من العادة، إذ تأتي الأبعاد الشعرية تتلقفه، وتدرس في صميمه، فيصبح متصفاً بالشعرية. والشعرية متولدة عنه، ومنبثقة من طرائق انتظامه، وتشكله، ولكن أهمية هذا الوعي تكمن في طريقة حضوره، وكيفية إعلانه عن نفسه. لقد تجلى في كتابات المرحلة أي بدءاً بالثلث الأول من القرن الثاني، حسب شكلين: اضطلع بدور الحافظ، أو القاعدة المركزية

التي يصدر عنها العلماء، والمفكرون، وترجع إليها المؤلفات. وجاء الدور الثاني متولداً عن الأول عضوياً⁽¹⁶⁾.

والجدير بالذكر، والتنبيه أن النقاد العرب قد تمثلوا الشعر بصفة أحد أبرز أطراف اللغة الأدبية، ولذلك دارت حوله جملة من البحوث، فتعددت الدراسات، والأفكار، والرؤى، بل إنهم تناولوه ضمن دراسات أدبية أخرى، قد تبتعد في مقصديتها عن دراسات الشعر في حد ذاته، من حيث الماهية، والمفهوم، والدلالة، والبعد المعرفي، ومن ذلك أنهم انكبوا على دراسته، وهم بصدد البحث في جمالية لغة القرآن الكريم، وتشكيل الخطاب الرسالي، والخطابي، فاصطلاح (شعر) لا يدل في حد ذاته على نوع معين دون غيره، فهو يحمل في طياته معنى التعدد، والتباين، والاختلاف، وكثرة الأنواع، لأن الشعر ليس نوعاً واحداً، أو أنه يقتصر على نمط محدد، وإنما هو عدة أنواع، وهو ليس نوعاً إلا في مقابل الأنواع النثرية عند من يأخذ بتقسيم الأدب إلى شعر، ونثر ولذلك هناك من رأى إليه كنمط أدبي تتولد من خزانة الإبداع أنواع كثيرة، فهو نمط، وشكل من أشكال الخطاب الأدبي، حيث إنه يتضمن شتى أنواع السمات اللغوية الجمالية التي تحققت بشكل، أو بآخر فيما يطلق عليه (الشعر)، وفي تاريخ الأدب العربي لم ينفرد نمط محدد بهذا الاسم (الشعر)، فالواقع التاريخي لهذا النمط يبين وجود أشكال متعددة، وكتنوعه جميعها ينضوي تحت لواء الشعر، وكل شكل منها هو نوع في حد ذاته، ومجموعها يكون النمط المثالي الذي هو بمثابة خزان لكل الأشكال التي تأخذ منه، وتضيف إليه، وقد أدرك النقد العربي هذا الواقع التعددي للغة الشعرية، فقسم الشعر تقسيمات كثيرة⁽¹⁷⁾.

لذلك نُلفي ثلة من الباحثين، والنقاد العرب يحرصون على عدم تجاوز الأفكار النقدية العربية المُقدمة عن الشعر، لأن في ذلك بعض التجني على الجهود العربية في دراسة الشعر، حيث يقول أحد الباحثين (محمد مفتاح) في هذا الشأن، وهو ينهض بتحليل قصيدة عربية تليدة: « لن نحاول أن نتجاوز ما تركه النقاد المسلمون من معايير لصياغة الشعر وفهمه إلى النظريات الحديثة في تحليل الشعر، لأن مثل هذا التجاوز يجعلنا نبخس مجهود القدماء في التنظير للنشاط

الشعري العربي صياغة وفهماً. فقد تغنينا بعض آرائهم عن كد الذهن لاختراع مفاهيم جديدة، وتقديمها للناس على أنها من بنات أفكارنا في حين أنها في بطون كتبهم. فاستغلال ما يصلح، إذن، من آراء القدماء فيه وفاء للتاريخ، وتوفير لجهود قد تبذل هدراً، ومعاصرة محتوية للصالح من التراث، ونبذ ما لا يصلح لقصوره الإجرائي، أو حمولته الميتافيزيقية، أو القدحية يُجنبنا الوقوع في الخلل المنهجي»⁽¹⁸⁾.

ب- بعض سمات الشعر الأول:

إن ما ينفرد به الشعر العربي عن سائر الأجناس الأدبية الأخرى في التراث الأدبي العربي أنه قد غالب شتى عوامل التغيير، أو الزوال على مدى الخمسة عشر قرناً المنصرمة من تاريخه، بيد أنه ظل على مدى هذه القرون أحد أركان التراث الأدبي للأمة العربية، ومقوماً رئيساً من مقومات، وأسس حفظ اللغة العربية، واستمرار أدبها حياً متفاعلاً مع كل الأجيال المتعاقبة، حيث إنه يأتي في الرتبة الثانية بعد القرآن الكريم في الحفاظ على هذه اللغة، وتشخيص عبقريتها، وقد لا نلفي اليوم أمة من الأمم لها هذا الامتداد من التراث الشعري مثل العرب، وقد لا نجد عندما نبحث في أي أدب من الآداب العالمية اليوم من يمتلك هذا التاريخ الأدبي الزاخر، والذي ظل يحتفظ بعلاقته الحية مع الأجيال الحاضرة على نحو ما يتجاوب شعرنا الجاهلي، أو يتجاوزب معه قراء تفصلهم عنه عصور، وعصور، إلى درجة أنه أضحي موضوع تثقيف، وتربية أدبية، وجمالية يتلقاها تلاميذ المدارس في شتى أرجاء الوطن العربي⁽¹⁹⁾.

والحقيقة هي أن الأصل الشعري العربي في الجاهلية اتسم بالشفوية، فقد نشأ الشعر العربي في بيئة تعتمد على الحفظ، حيث إنه نشأ « شفويًا ضمن ثقافة صوتية-سماعية، وإلى أنه، من جهة ثانية، لم يصل إلينا محفوظاً في كتاب جاهلي، بل وصل مدوناً في الذاكرة، عبر الرواية... ولد الشعر الجاهلي نشيداً، أي أنه نشأ مسموعاً لا مقروءاً، غناءً لا كتابة، كان الصوت في هذا الشعر بمثابة النسم الحي، وكان موسيقى جسدية، فهو ينقل الكلام، وما يعجز عن نقله الكلام، وبخاصة المكتوب، وفي هذا ما يدل على عمق العلاقة وغناها، وتعقدها بين الصوت،

والكلام، وبين الشاعر، وصوته، إنها علاقة بين فردية الذات التي يتعذر الكشف عن أعماقها، وحضور الصوت الذي يتعذر تحديده، حين نسمع الكلام نشيداً، لا نسمع الحروف وحدها، وإنما نسمع كذلك الكيان الذي ينطق بها، نسمع ما يتجاوز الجسد إلى فضاء الروح»⁽²⁰⁾.

ولا يختلف اثنان في أن قضايا الشعر الجاهلي التاريخية، والفنية، ومسألة أولية الشعر العربي تحفل بمشكلات متعددة، ومتشعبة، وكثيرة، ومن الصعب الإلمام بها بدقة، بيد أنها تظل قابلة للتدريس، والبحث، والتأمل، إذ يثير التبصر في أوائل الشعراء الجاهليين مجموعة من القضايا، والإشكاليات، وي طرح في حقيقته جملة من المشكلات، وقد توصل الباحث عادل الفريجات في دراسته البارزة، والقيمة، والتي تكتسي أهمية بالغة، والموسومة ب: «الشعراء الجاهليون الأوائل» إلى نتائج تكتسي أهمية كبرى، من أهمها:

« 1- إن الكتب التي حوت أخباراً، أو أسماء لشعراء جاهليين أوائل، ولأولية الشعر العربي، كتب كثيرة ومتنوعة، وهي تنتمي إلى أصناف من المعارف متباينة. وطلب استيفائها عسير، وبعيد المنال. وقد ورد بعض تلك الأخبار، أو الإشارات، أو الأسماء، قصداً، وجاء بعضها عرضاً.

2- إن ثمة أسماء كثيرة جداً قالت الشعر... ومن المحال استقصاؤها جميعاً جميعاً، لذا لجأنا إلى الاختيار والتمثيل، وقد ارتأينا أن يكون الاختيار أقرب إلى العشوائية النسبية، منه إلى التحكم، ذلك لأن الخيار الأول، فيما يبدو، قد يكون أكثر ملاءمة لتمثيل حالة الشعر الجاهلي قبل منتصف القرن السادس الميلادي.

3- إن مسألة الأوائل مسألة خلافية، وإشكالية- كما يقول أبو أحمد العسكري- وتحديد أزمان الأوائل مظنة للتباين والتناقض عند الرواة. وقد وقع تصحيح بعض الأوهام المتصلة بهؤلاء، كما هو الأمر بشأن لقيط بين يعمر الأيادي، وأبي دؤاد الإيادي.

4- هناك ما يُشبهه الإجماع أن الشعراء الأوائل جيلان: الجيل الأول يتقدم الثاني، ولكن مُمثليه لا يعدّون، في عرف بعض العلماء شعراء، لأنهم لم يقولوا الشعر بعد الشعر، ومنهم: خزيمة بن نهد، ودويد بن زيد، وأعصر بن سعد....

5- ويؤني على ما تقدم أن هناك فرقاً بين من قال الشعر، ومن قصد القصيد، ومن المعجز والمحال أن يُعرف من أول قائل للشعر العربي في غابر الزمان. ولعلّ القول بنشأة الشعر الشعبية يحل الإشكال، فالشاعر الأول هو الشعب العربي العريق بأسره، وليس فرداً بعينه يُستطاع تحديد زمانه، ومكانه، وفي هذا المعنى يمكن الاستشهاد بقول (سبتي نوموسكاتي)، ونصه: (والحق أنه يمكن القول: إن فكرة الملكية الأدبية كانت غريبة كل الغرابة عن عقلية الشرق الأدنى القديم، ومنه أرض الرافدين، فاسم المؤلف نفسه لم يكن أمراً ذا بال، ولهذا كان الإنتاج الأدبي في الغالب مجهول الصاحب)»⁽²¹⁾.

الهوامش:

- (1) د. سعد بوفلاحة: الشعرية العربية: المفاهيم والأنواع والأنماط، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، 1428هـ/2007م، ص: 17.
- (2) الفارابي (أبو نصر): كتاب الحروف، تحقيق: محسن مهدي، بيروت، لبنان، ص: 141، نقلاً عن د. سعد بوفلاحة: الشعرية العربية: المفاهيم والأنواع والأنماط، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، 1428هـ/2007م، ص: 18.
- (3) ابن سينا: فن الشعر من كتاب الشفا ضمن كتاب: فن الشعر لأرسطو (تحقيق: د. عبد الرحمن بدوي)، بيروت، لبنان، ص: 172، نقلاً عن د. سعد بوفلاحة: الشعرية العربية: المفاهيم والأنواع والأنماط، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، 1428هـ/2007م، ص: 19.
- (4) ابن رشد: تلخيص كتاب أرسطو (فن الشعر)، ضمن كتاب أرسطو (فن الشعر)، ص: 204، نقلاً عن د. سعد بوفلاحة: الشعرية العربية: المفاهيم والأنواع والأنماط، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، 1428هـ/2007م، ص: 19.
- (5) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء (تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة)، تونس، 1996م، نقلاً عن د. سعد بوفلاحة: الشعرية العربية: المفاهيم والأنواع والأنماط، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، 1428هـ/2007م، ص: 21.
- (6) د. عبد الملك مرتاض: قضايا الشعرية - متابعة وتحليل لأهم قضايا الشعر المعاصرة -، منشورات دار القدس العربي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص: 17.
- (7) د. قاسم المومني: نظرية الشعر عند ابن سينا، مجلة المورد مجلة تراثية فصلية تصدرها وزارة الثقافة والإعلام بالجمهورية العراقية، منشورات دار الجاحظ للطباعة والنشر والتوزيع، المجلد العاشر، العدد الثاني، 1401هـ/1981م، ص: 9 و 15.
- (8) د. محمد عارف حسين و د. حسين علي محمد: دراسات في النص الأدبي - العصر الحديث -، منشورات دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، الاسكندرية، مصر، 2000م، ص: 11-12.
- (9) د. قاسم المومني: نظرية الشعر عند ابن سينا، المرجع السابق، ص: 13 وما بعدها.
- (10) المرجع نفسه، ص: 16 وما بعدها.
- (11) الأخصر جمعي: نظرية الشعر عند الفلاسفة الإسلاميين، منشورات ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999م، ص: 156.
- (12) د. مصطفى الجوزو: نظريات الشعر عند العرب (الجاهلية والعصور الإسلامية)، منشورات دار الطليعة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط: 01، 1402هـ/1981م، ص: 120.
- (13) د. قاسم المومني: نظرية الشعر عند ابن سينا، المرجع السابق، ص: 20 وما بعدها.

- (14) د. عبد الملك مرتاض: مفهوم الشعريات في الفكر النقدي العربي، مجلة بونة للبحوث والدراسات، مجلة دورية محكمة تعنى بالبحوث والدراسات التراثية والأدبية واللغوية تصدر عن مؤسسة بونة للبحوث بعنابة، الجزائر، العدد: 7-8، محرم 1428هـ/يناير-جانفي 2007م، ص: 20-21.
- (15) د. محمد الكتاني: مصطلح الشعر بين التراث والمعاصرة، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة سيدي بن عبد الله بفاس، العدد: 04، عدد خاص بندوة المصطلح النقدي وعلاقته بمختلف العلوم، 1409هـ/1988م، ص: 127-128.
- (16) د. محمد الكتاني: مصطلح الشعر بين التراث والمعاصرة، المرجع نفسه، ص: 128.
- (17) المرجع نفسه، ص: 129.
- (18) د. عبد الرحيم الرحموني ود. أحمد العلوي العبدلاوي: في مفهوم الشعر والشاعر، منشورات مطبعة آنفو-برنت، فاس، المغرب الأقصى ط: 2005، 01م، ص: 21 وما بعدها.
- (19) د. عبد الملك مرتاض: مفهوم الشعريات في الفكر النقدي العربي، ص: 21.
- (20) د. عبد الملك مرتاض: المرجع نفسه، ص: 22.
- (21) تعددت الأسفار، والدراسات التي تطرقت إلى حياة ابن الخطيب، ولعل ابن الخطيب كان في طليعة علماء الأندلس الذين حظوا باهتمام كبير من لدن مختلف الباحثين، والدارسين القدماء، والمعاصرين المشاركة، والمغاربة على السواء، وهذا الأمر يعود إلى جملة من الأسباب، قد يكون في مقدمتها موسوعية، و غزارة إنتاج ابن الخطيب، فالرجل خاض في شتى أصناف المعرفة، وهو شخصية متعددة الجوانب فهو الشاعر، والمؤرخ البارع، والأديب، والصوفي، والفيلسوف، والوزير، والسياسي، و هذا ما ينجم عنه صعوبة حصر جميع ما كُتب عنه. إن ابن الخطيب يعتبر أحد كبار العلماء الموسوعيين، ويؤكد عدد كبير من المؤرخين، والدارسين على أنه أعظم شخصية ظهرت بالأندلس في القرن الثامن، وقد كان عبقرية متعددة النواحي. كان ابن الخطيب «يمثل بعبقريته، وقوة نفسه، وأصالة تفكيره، وروعة بيانه، وجزالة شعره أعظم ما تمخضت عنه الأندلس الكبرى من قبل تلك النماذج العلمية، والأدبية الباهرة، التي يزدان بها تاريخ التفكير الأندلسي، وكان بتعدد جوانبه، وسعة آفاقه، أكثر من وزير، وسياسي، وكاتب، وشاعر. كان مزيجاً من عبقریات متعددة، بلغ القمة في كل منها، ويندر أن تجتمع في شخص واحد، وكانت غرناطة تلك الأندلس الصغيرة، أضيق من أن تتسع لمثل عبقرياته، ومن ثم فإننا نراه خلال حياته المضطربة، سواء في المغرب أو الأندلس، يرتفع حيناً إلى الذروة، وينحدر أحياناً إلى غمر المحنة، تلاحقه تلك القوى الخبيثة، التي تضيق بنبوغه، وخلالها اللامعة. وقد دون لنا ابن الخطيب ترجمة نفسه كاملة، في نهاية كتاب (الإحاطة) ، عدا ما أورده في سياق الكتاب، و في مواضع عدة، عن مراحل خدمته السلطانية، وقص علينا كثيراً من حوادث حياته الشخصية، والسياسية في مختلف كتبه الأخرى، ولاسيما (نفاضة الجراب)، الذي يقص علينا فيه حوادث إقامته الأولى في المغرب، وسلا، و (اللحة

البدرية)، و(ريحانة الكتاب) الذي يضم كثيراً من رسائله السلطانية ،وقد دون له معاصره، وصديقه الفيلسوف ابن خلدون ترجمة في تاريخه الكبير، ووصف لنا مأساة مصرعه المؤثر «ينظر: محمد عبد الله عنان: مقدمة كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة، ص: 18. و ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون المُسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ص: 404) . هو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني، وذلك نسبة إلى سلمان، وهي بقعة باليمن نزلت بها بعض القبائل القحطانية، أو حي من مراد من اليمن ،عرب اليمن القحطانية، وتنتهي أسرة ابن الخطيب إلى إحدى هذه القبائل، وقد وفدوا على الأندلس بعد الفتح، ومنهم جماعة من الشام، واتخذوا قرطبة مقراً لهم، «وقد كانت قرطبة، وأحوازها منذ الفتح منزل قبائل الشام الوافدة على القطر الجديد، والظاهر أن بني سلمان كانوا ينتمون إلى الحزب المعارض للبلط أيام الحكم بن هشام أمير الأندلس، فلما حدثت واقعة الربض المشهورة (ضاحية قرطبة)، وثار أهل قرطبة بتحريض حزب الفقهاء المعارض للحكم (سنة: 202هـ - 817م)، واستطاع الحكم أن يمزق الثورة، وأن ينكل بأهل الربض، غادر قرطبة كثير من المعارضين من الفقهاء، وغيرهم، وكانت منهم أسرة لسان الدين» (ينظر: محمد عبد الله عنان: المصدر نفسه، ص: 19).

التي هاجرت إلى طليطلة وفق ما ذكره ابن الخطيب نفسه في مقدمة الإحاطة، وقد مكثت أسرته ما يقارب القرن ونصف القرن بالمدينة، وحينما شعرت بالأخطار المحدقة بها، حينما أضحت (طليطلة) عرضة لهجمات النصارى، غادرتها إلى مدينة (لوشة)، وهي المدينة التي ولد بها ابن الخطيب في الخامس والعشرين من رجب 713هـ، (16 نوفمبر 1313م)». (ينظر: جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، مج2، ص: 225) . وبالنسبة إلى لقب (الخطيب) ذكر لسان الدين أن بيتهم كان يطلق عليه تسمية (بني الوزير) ثم سمو (بني الخطيب)، وهذه التسمية ترجع إلى عهد جده سعيد، الذي يعتبر أول من استوطن مدينة (لوشة) من أسرته، وقد كان «عالماً ورعاً، وكان يلقي دروسه، ومواعظه تحت أطلال برج يجاور أملاك أسرته، ويقع على الطريق الممتد من غرناطة إلى إشبيلية ماراً بلوشة، ومن ثم فقد غلب عليه اسم الخطيب، وأورث هذا اللقب لبنيه، فعرفوا ببني الخطيب من ذلك الحين. ويحدثنا ابن الخطيب عن والده عبد الله، وكان من أكابر العلماء، والخاصة، ويترجمه لنا في الإحاطة. وقد ولد سنة: 672هـ، واستقر حيناً في غرناطة، ثم عاد إلى لوشة مقر بيتهم القديم، ثم عاد إلى غرناطة مرة أخرى ليلتحق بخدمة السلطان أبي الوليد إسماعيل، وهو الذي جلس على عرش غرناطة في سنة: 713هـ (1314م)، ولما توفي السلطان أبو الوليد إسماعيل قتيلاً في سنة: 725هـ (1325م)، خدم عبد الله من بعده ولده السلطان أبا عبد الله محمد، ثم شقيقه السلطان (أبو الحجاج يوسف) أعظم سلاطين غرناطة، وقد ولي العرش سنة: 733هـ (1332م). وخدم عبد الله في ديوان الإنشاء، مع الكاتب والشاعر الكبير الرئيس أبي الحسن بن الجياب، وأسبغ عليه لقب الوزارة، ثم توفي قتيلاً مع ولده الأكبر أخ لسان الدين في موقعة طريف الشهيرة التي هزم فيها المسلمون بقيادة

السلطان أبي الحسن المريني عاهل المغرب، والسلطان أبي الحجاج يوسف أشنع هزيمة، وذلك في جمادى الأولى سنة: 741هـ (أكتوبر سنة 1340م)، وسقطت على إثرها طريف، والجزيرة الخضراء في أيدي النصارى، وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون في المغرب، والأندلس مثلها منذ زمن بعيد». (ينظر: عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ج6، ص: 503. و خير الدين الزركلي: الأعلام، ج6، ص: 235). دخل لسان الدين الكتاب بمدينة (لوشة) مسقط رأسه، حيث حفظ القرآن الكريم وجوده، ثم تعلم مبادئ اللغة العربية على مجموعة من المعلمين من بينهم (أبو القاسم بن جزي)، كما أخذ النحو عن شيخ النحاة الإمام أبي عبد الله الفخار الألبيري «. (ينظر: الحسن بن محمد السائح: منوعات ابن الخطيب، ص: 35). وغيره من العلماء، والمربين، والفقهاء، وقد عرف ابن الخطيب منذ طفولته بطموحه، وقد أعانه على ذلك الطموح نكاؤه الحاد، وفهمه الثاقب، ورؤيته البعيدة المدى، وقد كان انتقال أسرته من (لوشة) إلى (غرناطة) نقطة تحول، حيث عين والده عبد الله مقتصدًا في بلاط ابن الأحمر الذي استعمله على مخازن الطعام، وقد أتاحت له الفرصة في غرناطة الدراسة على عدد من كبار العلماء المتميزين فأخذ عنهم الأدب كشيخ العدوتين الرئيس أبي الحسن بن الجياب، والفيلسوف أبي زكريا بن هذيل الذي اختص بصحبته، وفي هذه الفترة بدأ يظهر تفوقه، ونبوغه في الشعر، والترسل، والطب، والفلسفة، والتاريخ، ويعد سنوات قليلة لمع نجمه.

فقد تأثر مستقبل ابن الخطيب السياسي بحكم منصب والده، وحينما توفي والده دعي للحلول مكانه، وكان في الثامنة والعشرين من عمره، فتولى أمانة السر لأستاذه الرئيس الذي كان يشغل منصب الوزارة لدى السلطان (أبو الحجاج يوسف الأول النصري)، وقد استفاد ابن الخطيب استفادة كبيرة من أستاذه ابن الجياب في ديوان الإنشاء، وتأثر أيما تأثر به في أساليب النظم، والنثر، فملك زمام أرفع الأساليب النثرية والشعرية، وقد تجلت آثار أستاذه في رسائله السلطانية، التي كتبها على لسان ملوك الأندلس، والمغرب وقد وصفها العلامة ابن خلدون بالغرائب، نظراً لسحرها، وجمالها، وروعيتها. وبعد وفاة ابن الجياب في الطاعون الجارف الذي حل بالمدينة في شوال سنة: 749هـ (يناير سنة: 1349م)، تولى لسان الدين رئاسة الكتاب، وهناك خلاف في تاريخ توليه منصب الوزارة الأولى، وقد سعى الدكتور محمد الشريف قاهر إلى تصويب الأخطاء التي وقع فيها بعض الباحثين فقال: «تولى ابن الخطيب منصب الوزارة للمرة الأولى في أخريات شوال من عام: 749هـ لأمير المسلمين بالأندلس السلطان أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل النصري، وكان يبلغ من العمر آنذاك خمسة وثلاثين عاماً تقريباً. وقد أخطأ جرجي زيدان حين جعل توليه الوزارة للمرة الأولى عام: 733هـ، عقب اعتلاء أبي الحجاج لعرش غرناطة. فبالإضافة إلى تصريح المقرئ بتاريخ: 749هـ في نفح الطيب، فيزيد تأكيداً بأنه تولى الوزارة بعد شيخه أبي الحسن علي ابن الجياب الذي توفي عام: 749هـ بسبب مرض الطاعون الجارف الذي عم بلاد الأندلس والمغرب آنذاك، وأودى بخيرة رجال العلم، والأدب، وبقي ابن الجياب وزيراً حتى وفاته، وكان ابن الخطيب مساعداً له، وأميناً لسره». وقد كسب ابن الخطيب ثقة السلطان، وصار من

المقربين إليه، وفي هذه المرحلة تألق نجمه، و«عظمت منزلته، وأغدق السلطان عليه عطفه، وآثره بثقته، وجعله كاتب سره، ولسانه في المكاتبات السلطانية، وصدر منها بقلم ابن الخطيب طائفة من أبداع الرسائل الملوكية...، وجمع الكثير منها فيما بعد في كتابه (ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب)، وكذلك نقل إلينا المقري في (نفح الطيب) مجموعة منها . نقلنا هذه المعلومات من مصادر ومراجع متنوعة قديمة وحديثة هي:

- عبد الهادي بوطالب: وزير غرناطة لسان الدين ابن الخطيب، ص: 48، وما بعدها.
- المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج: 6، ص: 13-162.
- عبد الله عنان: المصدر السابق، مج: 1، ص: 22 وما بعدها.
- محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي: الأدب المغربي، ص: 232.
- ابن خلدون: كتاب العبر، ج: 7، ص: 690.
- محمد الطيب محمد عبد النافع وإبراهيم عبد الرحيم يوسف: تاريخ الأدب والنصوص الأدبية، ص: (459).